شارع دجلة
أوراق من سيرة مبكرة للألم

عبد الخالق كيطان

إلى أبي... تذكاراً للأيام المرة.. وللغياب.. والناس..

(٨)

انتفاضة آذار عام ١٩٩١قلبت كل شيء، خاصة بالنسبة لمن هو مثلي، لقد تربينا تربية لا تمجد شيئاً مثلما تمجد شخصية الرئيس، هكذا كنا في المدارس والبيوت والشوارع والمؤسسات الحكومية ومراكز الشباب والمقاهي والجرائد والتلفزيون لا حديث غير حديث القائد ولا صوت غير صوت القائد ولا صورة غير صورة القائد، وبعد هذا كله عليك أن تراجع حساباتك، والمشكلة، أنك ستكتشف حجم خطيئتك بحق نفسك.

عندما شاهدت الشباب، وكانوا أصغر مني، يحملون بنادقهم ويهتفون بسقوط الرئيس، الذي صار أسمه : الطاغية والدكتاتور والمجرم، وقفت أتأمل نفسي : أين كنت ؟ وإلى أين أنا ذاهب ؟، وبالطبع كان أبي يريد أن يبعدني عن ذلك كله ولكنه لا يدري كيف، خاصة وإن الوضع في تلك الأيام قد انفلت نهائياً، شخصياً كنت أحاول أن لا أغيظه، ولهذا لم أتهور إلا في حدود ومن ذلك أني تعللت بأهمية أن نطمئن على أخوتي وأخواتي في تلك الظروف العصيبة لأخرج من البيت، وخرجت فعلاً، وتكررت هذه الحجة لمرتين أو ثلاث مرات كانت تكفي لرؤية ما يحدث في المدينة.

قلت أن الشباب حملوا بنادقهم، التي كانت متوفرة في الشوارع أصلاً، وهاموا في الطرقات. وفي أحد الشوارع إلتقاني صديقي أمجد كاظم وقال أن المكتبة المركزية تتعرض للفرهود. كانت مكتبة ميسان المركزية من أهم المكتبات في العراق لما تحتويه من كتب نادرة ومخطوطات ثمينة ومراجع وقواميس ومؤلفات ضخمة وكم أمضيت فيها أوقاتاً رائعة في السنوات الماضية عندما كنت طالباً في الإعدادية، خاصة أيام الامتحانات النهائية حيث تزدحم المكتبة بالطالبات الجميلات، والمكتبة لا تبعد كثيراً عن منطقتنا " الجديدة " فهي تقع في شارع رئيس يفصل بين منطقتنا الشعبية وأكبر وأنظف حي في العمارة واسمه (عواشة)، وقد أطلقت عليه الحكومة فيما بعد تسمية: حي القائد ، وعلى يسارها يقع جسر العمارة الكبير، أو الجسر الجمهوري الذي شيد في الخمسينيات ويوصل قسمي المدينة ببعضهما البعض، وأمام المكتبة شيدت بدالة المحافظة وعلى يمينها كانت تقع مديرية الأمن، كنت أسمع من أبناء المدينة الأكبر سناً مني أنها تضم كتباً نادرة ليست موجودة حتى في مكتبات العاصمة الكبيرة، وقد آلمني حقيقة أن تتحول تلك المكتبة الضخمة إلى وجبة دسمة للعبث والنهب حيث كان كل شيء مباحاً.

قررت بدافع الفضول ربما أن أذهب مع أمجد إلى المكتبة، وصدق ظني، لقد شاهدت العشرات من الرجال والأطفال والنساء وهم يعبئون أكياساً ضخمة بالكتب دون أن يحددوا نوعية تلك الكتب أو عناوينها، كان المهم بالنسبة لهم أن يظفروا بأكبر كمية من الكتب ونقلها إلى بيوتهم ومن المؤكد أنها هناك ستتحول إلى (جيمه) أي وقود لتنانير الطين، فيا للمحرقة، نظر أمجد إليّ كمن يسألني رأياً، أدرت رأسي لا أدري ماذا أقول، كان أمجد قد قرر شيئاً، لقد بدأ بمحاكاتهم، ماذا أفعل ؟ ووجدتني أحاكيه أنا أيضاً.. تناولت كيساً من أحدهم، لاحظ أن روح التضامن في تلك الظروف كانت أقوى من غيرها بدليل أني لم أكن حائراً في أمر الكيس، المهم، كنت أقلدهم جميعاً،فأنا أيضاً لم أفكر في ما أختاره من كتب، كان هوس أن أعبئ كيسي بالكتب أقوى من غيره، وهكذا أوشكت أن أكمل تعبئة كيسي عندما صرخ أحدهم :

- توقفوا، المجاهدون قادمون..

كانت تسمية المجاهدين تطلق في تلك الأيام على المشاركين في الانتفاضة، ولأننا كنا بمثابة سراق ولصوص فهذا معناه أننا في طريقنا للاعتقال. سمعنا صوت إطلاق رصاص قريب، وبعد لحظات دخل أحد المجاهدين ملوحاً ببندقيته بوجوهنا، كان يرتدي زياً مدنياً بسيطاً ويلف على رأسه شريطاً أسود.

لقد صعقت، بل قرأت سورة الفاتحة في سري، إذ دنا الموت مني ودنوت منه.. صرخ المجاهد في وجوهنا مؤنباً، في الحقيقة لم يكن يصرخ في وجهي أنا تحديداً مما أعطاني فرصة أن أركز على وجهه لأكتشف فيما بعد بأن المجاهد هذا كان من سكنة ذات المنطقة التي ترعرعنا فيها، وهي منطقة شعبية تسمى (الجديدة) كان أبي من روادها الأوائل وبالتالي كانت عائلتنا معروفة جداً فيها، تنفست الصعداء، فالمجاهد عرفني، بل وسلم عليّ سلاماً حاراً، على اعتبار أنني كنت غائباً عن المدينة لسنوات، وقال لي متسائلاً:

- كيف تتركهم ينهبون المكتبة وأنتم أول الناس يقدرون ويعرفون أهميتها ؟..

قمت باستغلال الفرصة ووجهت لومي إليه هذه المرة:

- كان عليكم أن تعينوا حارساً على المكتبة ما دمتم أمسكتم بزمام الأمر، لا أن تتركوها نهباً للصوص والأميين، لقد عملت وصديقي ما بوسعنا لكي نمنع الناس من السرقة، ولكن، ها أنت ترى بعينك..

استطعت إقناعه بما قلت، فأمر الموجودين بترك المكتبة فوراً وقال أنه سيبقى هنا ريثما يأتي زملاؤه..

خرجت أنا وأمجد من المكتبة كما دخلنا. كان المهم بالنسبة لي أنني خرجت سالماً من هذه المعمعة، فالسلامة في هذه الظروف كانت شيئاً لا يقدّر بثمن، ذلك أن الموت كان قريباً جداً، بل أقرب مما يمكن تصوره.

هذه واحدة من المرات التي خرجت بها من الدار، أو بالأحرى استطعت أن أخرج فيها على ما كان أبي يريده.

في مرة أخرى رأيت ضباطاً كبار يبيعون رتبهم بثمن بخس ورأيت امرأة تجرجر هيكلاً عظمياً من تلك التي تزخر بها المستشفيات ولما سألها أحدهم عن فائدة هذا الهيكل العظمي بالنسبة لها، قالت (هذا صدام).. ومضت تجرجر به. امرأة أخرى كانت تحمل (رحلة مدرسية)، من المؤكد أنها كانت تريد الرحلة لأغراض الطهو، فالمعروف في تلك الظروف استحالة الحصول على الوقود أو ما يمكن الإفادة منه كوقود وكانت العوائل تحرق كل ما يقع في يديها لطهو الطعام. في الشارع القريب من بيتنا كانت مجموعة من الفتيات المتشحات بالسواد يحملن صوراً للإمام علي(ع) أو أبنه الحسين (ع)، طبعاً من تلك الصور المتخيلة التي تتوافر وتتداول بشكل واسع في مدننا الجنوبية الشيعية، ويطلقن هتافات مناهضة للطاغية وهتافات أخرى عن الإمام علي(ع)، والحقيقة، لم تكن تلك الفتيات من اللواتي عرفن بالورع والتقوى في المنطقة التي نسكن فيها، ولكنها الرغبة الكامنة في النفوس بمناهضة صدام بالذات، ولا يهم بعد ذلك شخصية المناهض أو خلفيته الفكرية والأخلاقية، هكذا كانت تجري الأمور في مدينتي (العمارة) طيلة أسبوع كامل هو عمر الانتفاضة الشعبية، كما يسميها المعارضون لنظام صدام، ويسميها النظام بصفحة الخيانة والغدر..

(٩)

في بغداد، كانت الأمور أكثر هدوءاً. هكذا عرفت من أصدقائي فيما بعد، والذين تفاجأوا بما حصل لي ولعائلتي، ولأن كليتي كانت مغلقة للمنتسبين لحزب البعث الحاكم، حيث جميع الطلبة هم من البعثيين أو بالأصح ممن جرى تبعيثهم، فقد عقد اجتماع حزبي بعد الانتفاضة بحوالي شهر ونصف لطلبة الأكاديمية وكنت حاضراً فيه.

تحدث عدد من الموجودين عن الذي حدث في آذار، ولكن أحدهم استفزني عندما قال بأن (الأحداث) التي وقعت في جنوب العراق كان سببها خيانة المواطنين هناك، طلبت الحديث بعده مباشرة، وكان يجلس إلى جواري صديقي ضياء أحمد عبد الرزاق ولم يكن من سكنة الجنوب ولكنه كان ناقماً على السلطة أكثر مني، فلكزني دون أن أعرف ماذا كان يريد، المهم أخذت بالحديث بصورة لم أكن أتوقعها أنا شخصياً، قلت فيما قلته أن أسمي كذا وأني من محافظة ميسان وأني فخور جداً لذلك وقلت بأني كنت في العمارة أثناء (الأحداث) ولذلك سيكون حديثي حقيقياً لا مثل أحاديث الآخرين التي تتهمنا بالخيانة، وأوجزت بأن سبب (الأحداث) كان تجويع الناس بحجة الخزين الاستراتيجي والدليل أن الناس قصدت المخازن الغذائية في اليومين الأولين (للأحداث) ووجدت هذه المخازن تغص بالمواد الغذائية من كل صنف ولون فيما هتك الجوع أعراض الناس، وبالطبع لم أكن قادراً على ذكر أسباب أخرى بطريقة مباشرة واكتفيت بالتلميح فقط. لم يرق كلامي للمسؤولين الحزبيين الذين كانوا يجلسون خلف الطاولة، أما الطلبة، فسمعت همهماتهم من كل الاتجاهات. قال المسؤول الأكبر أن ما تفضلت به ليس خطأً وأن المسيرة لابد أن تكون فيها أخطاء ووعد بتجاوز هذه الأخطاء مستقبلاً، وانفض الاجتماع. قال ضياء أنني كنت جريئاً، آخرون قاطعوني لأنهم لم يصدقوا بأني لم أكن (بالمخابرات) بدليل ما قلته في الاجتماع. ولقد استمرت الأقاويل من حولي تتهمني بالعمل في المخابرات حتى بعد تركي العراق وحصولي على اللجوء السياسي وعملي مع المعارضة العراقية. وهذا ليس مهماً، فعلى حدّ علمي لم ينج أحد من تهمة المخابرات هذه في العراق وخارجه إلا من كان يعمل في المخابرات حقيقة. لقد استطاع النظام أن يزرع الشكوك في نفوس العراقيين بعضهم ببعض لأسباب شتى، منها القمع والخوف والاستعداد النفسي وغيرها. شخصياً لم أكن معنياً بذلك أبداً، كانت لديّ مشاريعي التي تغنيني عن هذه الثانويات، في الشعر والمسرح والنقد والحب الفاشل دائماً وتجارب الجنس الفقيرة والصداقات الغادرة.

مظلة لجميع الرؤوس

فارس عدنان

بعدها بقليل (ولأن شهوة المعرفة في هي المحرك الرئيس لمعظم افعالي) علمت من اصدقائي الجدد في هذه البلاد ان الدستور هنا (استغرقت كتابته ١١ عاماً) ولا يحدد لغة "رسمية" للاتحاد الفدرالي ولا للولايات او المقاطعات !! يمكن للمواطن التحدث والكتابة والقراءة والنشر بأية لغة على وجه الارض وإذا قررت الاغلبية في مدينة صغيرة اعتماد الالمانية لغة تفاهم ولغة مؤسسات ادارية ولغة اولى للصحيفة المحلية المحدودة الانتشار سيكون الحق مع هذه الاغلبية كما حدث مع مدينة صغيرة في جنوب ولاية انديانا قبل بضعة أعوام.

الانكليزية وحسب الدستور هي ليست لغة البلاد الرسمية لكن تعلمها ضرورة للوصول لشواطيء التفاهم الامنة مع الاغلبية الناطقة بها رغم تعددية الخلفيات العرقية والثقافية للمواطنين هنا.

اللغة (أية لغة) من الملامح التي تشكل الهوية الثقافية لاي مجموعة بشرية في عالمنا وصيانة اللغة والاعتراف بها رسمياً لهو اعتراف بحق الوجود لهذه المجموعة. وعلى هذا الاساس وجدت مجتمعات ثنائية اللغة ككندا او متعددة اللغات كالهند (١٥٠ لغة حسب آخر إحصاء).

ذهبت بعض الدول بعيداً في محاولاتها لصيانة لغتها الى درجة التطرف مثل فرنسا التي عينت خبراء من الأكاديمية الفرنسية لممارسة (غربلة لغوية) كل عام، لتصفية الكلمات الاجنبية من لغة فيكتور هوغو. في اليابان، الامر يخرج عن حدود الفخر الوطني باللغة اليابانية ليصل الى مرحلة شعور تام. بالضياع لاجنبي يحاول قيادة سيارة خارج العاصمة. أسماء الشوارع والعلامات المرورية على الخطوط السريعة، خارج طوكيو، إضافة لاسماء الجامعات والمحلات والمطاعم وغيرها كلها مكتوبة بلغة مهندسي تويوتا والاجنبي مثل صديقتي الامريكية التي عاشت في طوكيو لفصل دراسي واحد وعادت بخيبة أمل كبيرة . بعد عودة صديقتي لولاية انديانا، قالت ان الناس هناك يمارسون شوفينية لغوية ضد السائحين وانهم يعتقدون ان اللغة اليابانية هي (يابان اخرى) بعد ذهاب مجد الامبراطورية مع غبار هيروشيما النووي ولهذا اضطرت (صديقتي) للبقاء في طوكيو معظم الوقت او استخدام لغة الاشارات خارج زحام العاصمة.

جاءتني هذه التداعيات حين كنت اقرأ القانون العراقي الانتقالي الجديد الذي هو ألأ (بروفة) او العينة الاولى (التي تتحمل تعديلات مستقبلية) من دستور سيكون يوما ما . العربية والكردية لغتان رسميتان للامة العراقية، أين الخطأ هنا؟ أين الخطا في اعطاء العرب والاكراد حرية ممارسة حقوقهم الثقافية بكل حرية ؟

هي حقوق مضمونة دستورياً ولا شائبة عليها ولكن ايكتمل المشهد العراقي الاجتماعي والثقافي بلغتين من عدة لغات غير منقرضة ولا تزال قيد الاستعمال من قبل مجموعات بشرية معترف بها دستورياً؟؟

الاعتراف بالاكراد والاشوريين والكلدان والصابئة واليزيدين والارمن وغيرهم لايتم عبر سطور مجردة في الدستور لا تعني شيئاً ما لم يتم تفعيلها على أرض الواقع . كي ننجز هذا الامر ونعترف بحقوق الجميع علينا ان نصل الى حلول واقعية يمكن تطبيقها على الارض من دون غبن لهذه المجموعة او تلك. الافضل لنا جميعاً ولتجاوز الاشكاليات الحاضرة والمستقبلية البحث عن منطقة حياد يمكن ان نؤسس فيها حلولاً لمشاكلنا اللغوية. لا يمكن طبعاً اجبار الناس على تعلم لغة لن تفيدهم مستقبلاً ولا تمثل لهم غير سيطرة مجموعة بشرية اخرى على مجريات حياتهم في الماضي القريب او في الحاضر المشوش.

اللغة (وحسب الدستور الذي نامل ان يكون خيمة للجميع) يجب ان تكون واجهة ثقافية للمجموعة البشرية وعنواناً متأصلاً في الحياة اليومية، هكذا افهم دور اللغة الذي يتجاوز دور جسر التفاهم ليصل الى حالة المساواة التي يجب ان يشعر بها الجميع والتي يجب ان تتأصل في حياتنا مستقبلاً لنصل الى مرجلة الحاجة لتعلم الاشورية او الكردية كلغات بجانب العربية لها الحق بالتواجد تحت شمس دستورنا القادم. نحن امام اشكالية لغوية حقيقية واعني اشكالية ثقافية حقيقية، حسناً، لنردد سؤال لينين الشهير: ما العمل ؟

ولا ننا نأمل ان نعيش في عراق فدرالي في المستقبل، علينا الابتعاد عن فخ (اللغة الرسمية) الذي سيترك انطباعاً لدى شخص واحد او مجموعة افراد بان هذه اللغة الرسمية هي (لغة تفوق وتميز) لقومية (متفوقة) ولان العربية لغة الأغلبية السكانية، اقترح ان تكون وحسب القانون الانتقالي او الدستور القادم لغة المؤسسات الفدرالية التي يجب ان تكون لغة السكان الثانية في المناطق غير العربية، او لنترك (اللغة الرسمية) جانباً، بهذا التشريع العقلاني سنؤسس للمساواة (لغير العرب) في الفرص الوظيفية والتعليمية خارج مناطقهم وفي ذات التشريع علينا ان نأخذ تعليم العرب اللغات الاخرى للامة العراقية. بهذ يمكن للاشوري العمل خارج منطقته وللكردي العمل في البصرة دون مشاكل للعربي من العمل في السليمانية ايضا.

لم أميز العربية كلغة تفوق الاقتراح ولم أرد فرض لغة غريبة على أهلنا في السليمانية او تلكيف انما أردت التأكيد لمفهوم المساواة في الحصول على الفرص لكل طبقات النسيج الاجتماعي للامة العراقية. اما لغات المحافظات الرسمية فهي امر يجب التصويت عليه من قبل سكان تلك المحافظة وهذا التصويت سيترك لجمهور المحافظة انطباعاً بان الدستور مهتم بكل الهويات الثقافية للمجاميع العرقية التي تشكل الموزاييك العراقي.

لا أجد ضيراً في وجود جامعة في اربيل تعلن ان الكردية هي لغة التدريس الرسمية واخرى في ضواحي الموصل تعتمد الاشورية لغة تدريس او قناة فضائية تبث من بغداد بالتركمانية واخرى بالارمنية. لننظر للامر بواقعية تامة ولنبتعد قليلاً عن العواصف العاطفية التي اصابتنا في مقتل لاكثر من ٣٥ عاماً. العرق الصافي المصفى الذي برز في الامس سيطرة قومية على اخرى هو وهم بدا في اوربا لتبرير الاستعمار وبعدها روجت له النازية لاسباب معروفة وترجم الى العربية على يد ساطع الحصري ومواطنه ميشيل عفلق الذي برر بانشائية متهافتة لهذا الوهم .

احلم ان نمارس عدالتنا في وطننا في الغد على المستوى اللغوي لنحل (اللغة الرسمية) او اشكاليتها الى الابد. أملي ان تكون العلامات المرورية باللغة العربية واللغة المحلية لتلك المحافظة وستكون صحف فدرالية وصحف محافظات والجيش سيتحدث بالعربية مع باقي اللغات دون عقد لغوية. بهذا لا يحدث أي الغاء للانتماء العربي والكردي والآشوري والكلداني والصابئي والارمني والتركماني. سنكون أمة متعددة الانتماءات والثقافات وهذا ملمح من ملامح القوة والابداع. لو تعامل العراقيون مع اللغة بجدية سنجد تطبيقاً واقعياً للفدرالية في الوطن العراقي بعيداً عن الشعارات وصراخ السياسيين وافتتاحيات الصحف الحزبية.

حين تتوفر الأرضية القانونية لمقترحي هذا سيكون عراقنا الفدرالي حقاً بلد الملل والنحل من دون سطوة مجموعة على أخرى وسيتسنى للكردي ان يفخر بكرديته وللتركماني والاشوري والعربي كذلك وبهذا سنفخر بعراق ينصف الجميع ويكون مظلة لجميع الرؤوس.

> في أول شهر لي في أمريكا ، عام ١٩٩٢ ، وبسبب عارض صحي ألم بي ، زرت غرفة الطوارئ في مدينة فورت ورث (تكساس) وما أثار دهشتي حينها ان موظفة الاستعلامات قدمت لي استمارات بيانات أساسية بالأسبانية . حين اعلمتها بأن مهارتي بهذه اللغة اقل من مهارتي في الطبخ وقيادة الدراجات البخارية ، تأسفت لي مع ابتسامة خجولة موضحة افتراضها الخاطيء باني مكسيكي الاصل ولا اجيد لغة قوم شكسبير وبعد هذه الحادثة تبخرت الفكرة التي كانت ثابتة عندي باني سأحتاج الانكليزية لاقامة جسور التفاهم مع الآخرين .

سواد الأسئلة

مازن المعموري

يالنا من ارغفة ناعسة...!!
نحن الذين شاطرنا الشمس صباحها
واغلقنا على القمر النوافذ
كيف لي ان اكون رغيفا بين اسنان ذلك الذئب؟
اقلب للسماء امتداد الافق
اتصور الحرية ارنبة
لا تقبل غير القفز فوق الاضرحة
اتصور السماء كسلم معتوه
لا يقبل غير وجهي بين مرآتين منحنيتين
كيف لي ان اكون مزحة في شفة طفل؟
أيمكن ان يكون للحلم وجه آخر؟
تداعبه أناملي
فأغفو مرة اخرى
أي رثاء يبللني؟
يقبل اليباس
فوق قرني الهلال
وبين قرنيك نجمة
سأحمل كل امتعتي وارحل للوصول
فأي قرنيك يقبل لمسة؟
كان لي ظلي
فكن انت ظلي وصاحبي الذي ارثيه
بل أي رؤيا اسافر لاجلها
غير اكواخ القبور
سأنحني تحت يدي ذلك المصباح
ولا تعاودني للخروج للغابة
فانا اعيشها كل يوم
ايمكن ان اكون انا... هي؟
وكل ذلك الفراغ يشاطرني ظلمة
أي ظلمة؟!
أي بصيص اريده لاراك؟
ساحتاج إلى جهنم كي تكون بصيصي
كن هادئا ايها المطر
فان ايقاع انا ملك فوق نافذتي رصاص
ولا مطر
اغفو على مد النهار
لأسحب الضياء
سافتح للجزر الوانها
واجعل للحيتان بحارا دون صيادين
لقد تبللت انا ملي فاخضرت فتفرعت
انا الشجرة التي تعلقت بها الشمس
ايها المتعالي
لا اجرؤ على ان اسأل السماء ان تطأ قليلا
كي ارى قدميك تتسلق النجوم...
لم يعد تاريخك القديم
يلون اجنحة الفراش
ويخط احمرار الغروب
أي لون يعطرك غير البنفسج؟
ويمزق السواد بنقطة
لا تبرح الخمرة مكانها
فوق سكة الحديد
غير اننا كنا نزعم رحيلنا بعيدا
الهواء يرقص ام نحن؟
وكل ذلك اليباس
يشتغل باسطا يديه بقطرة ماء
فنحيا
أسأل الله كيف يحيا دوننا؟
موسيقاك
أم لحظة في اختراق الجدار؟
يا صفير الحلم
أو نزعة الزمن المر
انا لحنك الابدي
ودمي نجمة